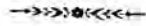


لسانه العربية به الخطيب

للجائز الكبير الشيخ احمد السكندرى

استاذ الأءب العربى بءار العلوم

• لسان الدين الخطيب آءر شاعر نابء من شعراء الانءلس، وأول شاعر فى الاسلام قتل
أعداءه وحرقوا جثته، ومثلوا به مثالا وقد استطاع الاستاذ الجليل الشيخ آءمء السكندرى أن
يترجم حياته. ويحلل آثاره الشعرية فى أسلوب على ءقيق، وكان من فضله أن يءص قراء (المعرفة)
بهذه الثروة الاءبية الضافية . وما من رءب فى أن (المعرفة) حين شكر الاستاذ ذلك التفضل انما
ترجوا أن يكون أقرانها من ذلك اللون الطريف فى ءراسة الشخصيات قءوة بتأرونها واسوءة بءءونها.
المحرر



نسبه ومنشؤه

هو ءر الوزارتين الاءيب الكاتب الشاعر الفقيه المتطبيب المتفلسف المؤرخ أبوعبءالله محمد
لسان الدين بن عبء الله بن سعيء بن عبء الله بن سعيء الخطيب السامانى . وسعيء الءء الأعلى
أول من تلقب بالخطيب واشتهر بأولاءه ببنى الخطيب، وسلمان بطن من مرءء من الءمانية نزلوا
بعء الفءح بقرطبة، ثم أءلاهم الاءمير الءكم الأموى عنها مع من أءلى من الاءلام عءء وقعة
الربض المشهورة فنزلوا طليطلة، ثم تشبثوا فى أواسط الاءلس حتى نزل أعقابهم ببءة
« لوشة » على مرحلة من غرناطة شمالا، ثم نزل سعيء الءء الأقرب المترجم حاضرة « غرناطة »
فخطبى عءء سلطانها، ونشأ له ابنه عبء الله أبوالمترجم، فاستءءم لبنى الاءمر على مءازن الطعام
وكان أءيباً متطبيباً واستشهد هو وابنه آءو لسان الدين فى الكارئة العظمى التى أنزلها الاءمير
بجيوش المساميين من ءوليتى بنى مرين وبني الاءمر على ظاهر طريف سنة لإءءى واربعين
وسبعمائة .

ولء لسان الدين بغرناطة فى الءامس والعشرين من شهر رءب عام ثلاثة عشر وسبعمائة
ونشأ على حالة ءسنة فءفظ القرآن الكريم وجوؤه . وقراء العربية على أستاذ الجماعة « أبى
الءسن الفيجاطى » والخطيب « أبى القاسم بن جزى » ولأزم قراءة العربية والفقه والتفسير
على الشيخ الاءام « أبى عبء الله بن الفءار الاءبرى » شيخ التءوين لعهمء، وتأءب بالرئيس
« أبى الءسن بن الءباب » وأءء الطب والفلسفة عن الاءام « أبى زكرايا يحيى بن هزبل »
وتخرج فى كثير من العلوم .

نصرفه وخرمته في دولة بني الأحمر :

كان لسان الدين بن الخطيب في حياة أبيه على الدرجة في مناصب الدولة ، نافذ الأمر والنهي ، فولاه سلطانه أمير المسلمين « أبو الحجاج يوسف بن الأحمر » باني الحمراء كتابة سره ولما يستكمل الشباب معززه بقيادة الجيوش ، ثم تولى وزارته بعد استاذة ابن الجياب . واستعمله في السفارة الى الملوك ، واستنابه عنه بدار ملكه ، ورمى الى يده بخاتمه وسيفه ، واستأمنه على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجون حرمه ، ومعقل امتناعه ، فنهض بأعباء كل أولئك خير نهوض الى أن قتل سلطانه أبو الحجاج غيلة ، قتله أحد المغرورين وهو يصلي صلاة عيد الفطر سنة ٧٥٥ . فولى أمر الملك ابنه الأكبر أبو عبدالله محمد ، وكان له من أبيه أخوان شقيقان : أكبرها « اسماعيل » والاصغر « قيس » فألزم اسماعيل وأمه قصرأ من قلعة الحمراء بقرب قصره مرفها عليه ، متممة وظائفه له ، وكان لاسماعيل صهر من رؤساء بيت الملك فسعى له في الاستيلاء على ملك أخيه والتف عليه نحو مائة من ذؤبان الرجال . فاتهموا فرصة تحول السلطان محمد وولده الى دار له في بستان خارج قلعة الحمراء للرياضة وترويح النفس . قسوروا القلعة ليلا من جهة لم يكن ثم بناؤها ، وقتلوا الحراس والحيتاب وأطلقوا اسماعيل . وملكوا منافذ القلعة ، فوجد طرقها قد أخذت عليه ، وتضج بالسهم والحراب فلم يطق المقام . ونجا رأس طمرة ولجام ، فصبح بمدينة وادي آش فدافع عنه أهلها نحو شهرين ، ثم ضعفوا بالمبايعة كثر البلاد اسماعيل محمداً . فأتاه رسول صاحب المغرب أبو سالم المريني مستدعياً له الى حاضرة « فاس » فذهب اليه فأكرم مشواه .

نكبة الاولى

وقبض اسماعيل على لسان الدين واستصفى أمواله وعقاره فاستشفع له صاحب في إطلاقه والاذن له في الذهاب الى المغرب ، فأطلقه فذهب الى « عدوة » المغرب وتلقاه سلطانه بالقبول فأقام بالمغرب رذحا من الزمن يسبح في بلدانه ثم ألغى العصا بمدينة « سلا » متبذراً عن سلطانه المخلوع الى أن اضطرب قتل اسماعيل ، واستبد عليه صهره بالملك . فانتشرت الفتنة في الاندلس وخرج علي هذا الرئيس « عثمان بن يحيى » شيخ الغزاة ، ودعا المخلوع ومن جلا اليه من أهل الاندلس لاستنقاذ البلاد - ولما لم تكن لهم قاعدة حربية بالاندلس يبتون منها الدعوة - ويتركون نار الثورة . استنزلوا صاحب « فاس » عن مدينة « رندة » بشفاعة ابن خلدون المؤرخ . ومنها غزوا « مالقة » فاستولوا منها علي « غرناطة » واسترد محمد ملكه ، وهرب اسماعيل وأخوه بالاموال والنقائس الى ملك « قشتالة » فعدر بهما وقتلها وأخذ أموالها .

وربعث محمد في طلب أهله ومخلفاته في فاس فأرسلت مع « ابن الخطيب » اليه ففرح السلطان محمد بقدومه ورد اليه مناصبه ومكاته من الدولة . إلا أنه رأى ثمة منافساً عظيماً له عند السلطان هو شيخ الغزاة « عثمان » فما زال يكيد له ويحذر السلطان بطشه حتي قبض عليه وأهله وأودعهم السجن ثم نفاهم عن البلاد . وخلا لابن الخطيب الجو ، وغلب على هوى السلطان وانفرد بالحل والعقد . فغصت به بطانة السلطان وحاشيته وخاصة « ابن زمرك » تلميذه وقد كان تولى الكتابة لابن الأحمر قبل قدومه — فتفتنوا في السعاية به ، وما زالوا بالسلطان حتي أحفظوه عليه .

نكبة الثمانية

فلما أحس (ابن الخطيب) منهم الشر ، أعمل الحيلة في الفرار الى السلطان (عبد العزيز) صاحب المغرب بلباس . وكان قد استدعاه اليه سرّاً من قبل ، فاستأذن سلطانه في الذهاب لتفتيش بعض السواحل ، ومن هناك عبر الى المغرب فلقاه صاحبه بالترحيب ، وخاطب ابن الأحمر في إرسال أهله وولده إليه بالمغرب فبعث بهم اليه ، إلا أن ابن الخطيب جد في ترغيب عبد العزيز بانزاع ملك الأندلس من بني الأحمر ، وعلم بذلك السلطان محمد بن الأحمر ، وطلبت إليه بطانته أن يجعل بنكبة ابن الخطيب قبل أن يستمر مراده وينفذ تدبيره ، وأخذوا يكيدون له كيدها ، فبعث ابن الأحمر إلى عبد العزيز قاضياً من قضائه الى المغرب لمحاسبة ابن الخطيب ومقاصاته على ألتماذ وقعت منه في كتاب « المحبة » توجب الكفر ، وطلب حكم الله فيه ، فصم عبد العزيز عن ذلك ، وأنف أن يخفر ذمته ، وقال لهم : (هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟) إلا أن السلطان عبد العزيز مات وخلف صبيّاً صغيراً وولاه وزيره ابن غازي الملك فخاطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب الملك المتوفى ، فأغلظ الرد ، فجرد ابن الأحمر جيشاً لاجتياح بلاد السواحل التي لهم بالأندلس ، وأوعز إلى أحد أمراء بيت الملك من (بني مرين) أن يطالب بالملك ، وساعده في ذلك على شرط أن يتخلى عن أملاك (بني مرين) بالأندلس وأن يسلمه ابن الخطيب ، وأرسل لتأييده جيشاً أندلسياً ، فتم للتأثر أمره ، وبويع سلطاناً على المغرب ، وهو (أبو العباس أحمد المريني) وقبض على ابن الخطيب بأمر سليمان بن داود بن زمرك سفير بني الأحمر فأحضر في « المشور » في مجلس الخاصة ، وعرض بعض كلمات وقعت له في كتابه في (المحبة) فعظم النكير عليه فيها ، ووبخ ونكل به وامتنحن بالعذاب ، يشهد ذلك الملاح ثم نقل الى محبسه واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه بكفره ، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله . فطوقوا السجن ليلاً ومعهم زعانقة جاءوا في لقيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنفاً في محبسه وأخرج

شلوه من الغد فدفن ، ثم نبشه السفهاء من قبره وجمعوا له حطباً وأضرموا عليه النار فاحترق شعره واسود جلده فأعيد الى حفرته ! وكان في ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشعاء التي جاء بها سليمان القائد وعدوها من هناته . وعظم التكبر فيها عليه وعلى قومه ودولته (١) وكان قتله سنة ٧٦٦ هـ .

زطوة

كان ابن الخطيب أمة في الذكاء وتوفد القريحة . ولا أدل على ذلك من نفوذ خاطره ونبوغه في كثير من العلوم والصناعات : ما بين معقول ومنقول ومشهود ، وتفوقه على الأتراب والأقران في الاضطلاع بسياسة الملك ونجاحه في سفاراته الى ملوك المغرب وملوك الاسبان وهو بعد شاب لم يكتمل شبابه حتى أعقب ذلك فيه شدة الأرق فقضى أكثر حياته لا ينام الليل إلا غراراً - على براعته في الطب - حتى لقب بذي الحياتين ، كما كان يلقب بذي الوزارتين وكما لقب بعد موته بذي القبرين لدفنه مرتين ، ومع هذا الأرق الدائم لم ينحرف مزاجه وبقي سليم الخواس الظاهرة والباطنة ، وأكثر مؤلفاته إنما دجتها براعته في سكون الليل ، وخص النهار بتدبير شئون مملكة تكالب عليها الأعداء ، فهي منهم بالمقيم المقعد من تعبئة جيوش وارسال أمداد وسفارات الى ملوك المغرب وأفر بريمة لاستنجادهم ، وكيد للخصوم ، ودفع لمكايدهم وتأثيل لثروته ، وإنشاء لقصور وبساتين ، مما لا ينهض بأعبائه إلا افضال الرجال وقليل ما هم .

انصرافه

وكان ابن الخطيب على الهمة محباً للاستئثار بعالي الامور ومناصب السلطان والانشداد بالمجد ، وقد حملة ذلك على المركب الصعب في حياته ، فأدى ذلك الى الافراط بالجهد في العمل وتحصيل العلم حتى برز في علوم وصناعات شتى حتى الطب ، وحتى التصوف ! ودفعه الى مصاولة كل عظيم يتوهم أن يزاحمه عند السلطان في الجاه والرياسة ، وعند الناس في ذبوع الصيت ورقعة المنزلة ، فكان يكيد لهم عند السلطان حتى يجفوههم ، أو ينفيهم من بلاده ، أو يقلقوا هم من مكانهم فيزايلاو البلاد خشية نزول مكروه بهم . فأذكى نيران العداوة بينه وبين كثير من أهل الفضل ، فلم يألوه كيداً وسعاية ، ولم يألهم هو تجريحاً وتعجيزاً وسباً وهجاء وتجرد من نصفتهم في تراجمه لهم في كتبه على عكس إطنابه وإغراقه في تقر يظ أوليائه وصنائه - فلم يكن مؤرخاً عادلاً في حكمه . ومن نكبتهم بسعايته عند ابن الأحمر « الغنى بالله محمد » شيخ الغزاة ، والمجاهدان « عثمان » وأبوه « يحيى » . وعثمان هذا هو الذي قام بشعر الدعوة

إلى إرجاع السلطان محمد إلى ملكه ، وقاد الجيوش على « مالقة » و « غرناطة » حتى فتحهما وأسقط اسماعيل وصهره المستبد عليه عن عروشها ، ومن أفلقهم وأقضى مضجعهم عن الأقامة بالأندلس ، صديقه الذي استنداه إلى الأندلس - ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور - عند ما رآه ينزل في عين ابن الأحمر ، لوفرة علمه وأدبه وحسن تهذيبه وتوفقه في نجاح سفارته عند ملك « قشتالة » (١)

ومن أخلاقه ما يخلق به أن يسمى منه رياء ، وهو اتحاله مذهب المتصوفة والزهاد والوعاظ في كثير من رسائله وتأليفه ، وخاصة في كتاب « المحبة » حتى لا تكاد تميز بين كلامه فيه ، وكلام أمثال شيوخ القوم من المغاربة : كابن عربي ، والقشيري ، وأبي مدين - على رغبة شديدة في تأثيل الثروة ، وترقية العيش ، وتولع بأشياء القصور وغرس البساتين - حتى في أيام نكبته ودار غربته ونشاط أعدائه في السكيد حتى نعوا عليه ما أنشأه من الضياع والقصور والبساتين في ظاهر مدينة فاس وأرباضها قبيل التقبض عليه في نكبته التي كانت فيها نفسه - وعدوا ذلك غفلة منه عن حوادث الزمان وأما لمسكر الله .

وقد كتب القاضي ابن الحسن من أعيان « مالقة » من كتاب مطول بعث به إلى ابن الخطيب بعد تحوله عن الأندلس إلى فاس : —

« ... فشرعتم في الشراء وتشديد البناء ... كتملادادها دم الذات . هيئات هيئات : تبون ما لا تسكنون ، وتدخرون ما لا تأكلون ، وتؤملون ما لا تدركون . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . فأين المهرب مما هو كائن ؟ ونحن إنما نتقلب في قدرة الطالب شرقتم أو غربتم ، والأيام تتقاضى الدين وتنادي بالنفس الفرارة إلى أين ؟ إلى أين ... »

على أن لسان الدين نفسه يعظ غيره بأشد مما وعظ به ، كقوله : —
« ... وأنتم تدرون انكم في أطوار سفر لا يستقر دون الغاية رحله ، ولا يتأتى معها إقامة ولا مهلة من الاصلاح ، إلى الارحام ، إلى الوجود ، إلى القبور ، إلى النشور ، إلى إحدى داري البقاء . أفى الله شك ؟ فلو أبصرتم مسافرا في البرية يبني ويغرس ويمهد ويعرس ، ألم تكونوا تضحكون من جهله وتعجبون من ركاكة عقله ؟ ووالله ما أموالكم ، ولا أولادكم وشواغلهم عن الله التي فيها اجتهدكم الابقاء سفر في قفر ، أو إعراس في ليلة نقر ، كأنكم فيها مطرحة تعبر فيها المواشي ، وتنبوعن خيرها المتلاشي . إنما أموالكم وأولادكم فتنة » والله عنده أجر عظيم »

أحمد السكندري

« يتلى »